مريم المجدلية في النصوص المسيحية المُبكرة:

رهانات الجماعات المسيحية في صراع الأرثوذكسيّة والهرْطَقة

الدكتور: ياسين اليحياوي*

المملكة المغربية

ملخص:

تُعد مريم المجدلية من بين الشخصيات المسيحية التي أثارت النقاش في الأوساط العلمية، لاسيما بين مفسري العهد الجديد ومؤرخي المسيحية المُبكرة. يرجع ذلك تحديداً لتضارب الرؤى بشأن مكانتها بين الأتباع المقربين ليسوع والدور الذي قامت به في السنوات الأولى من المسيحية، بين رأي يعتمد نصوص العهد الجديد القانونية ومن ثم ينقل نظر الجماعة الأرثوذكسية، ورأي آخر يستند على وثائق جديدة شملتْ عددا من نصوص الأبوكريفا التي تنتمي لجماعات صُنِّفتْ من قِبل الكنيسة بأنها غنوصية ومُهرطقة. ستُحاول هذه الورقة دراسة صورة مريم المجدلية من خلال الاعتماد على النصين معاً، ولا نروم من ذلك إعادة تشكيل معالم هذه الشخصية، بقدر ما نُحاول النفاذ إلى صراع خفي بين الجماعات المسيحية المُبكرة على الزعامة الدينية وحيازة المقدس، تركَّز في عدد من الأفكار والشخصيات الدينية، والتي من بينها مريم المجدلية.

كلمات مفتاحة: مريم المجدلية؛ مسيحية مُبكرة؛ أرثوذكسية؛ هرطقة؛ غنوصية

* باحث وأكاديمي مغربي، حائز على درجة الدكتوراه تخصص تاريخ الأديان من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، المغرب.

مقدمة:

يتسم تاريخ المرأة في المسيحية المُبكرة بالتعقيد وعدم التجانس، ويرجع ذلك بالأساس لصورة المرأة خلال هذه الفترة المُبكرة من تاريخ تشكل الإرث المسيحي، الذي عرف حضور العديد من المُكونات الإثنية والدينية، جعلتْ دراسة النساء كفئة مُتمايزة أمراً بالغ الصعوبة. فلم تكن الجماعة المسيحية الأولى مُنغلقة أو مُنزوية على نفسها؛ كما أن السياق التاريخي للقرن الأول الميلادي في منطقة فلسطين، امتاز بتعدد الأفكار والمُعتقدات الدينية. أسفر كل ذلك عن حضور بارز لشخصيات نسائية في الذاكرة الجمعية التي تناقلها المسيحيون الأوائل إلى أن دُونتْ أولى النصوص الدينية. فكان من ثم للمرأة أدوار دينية وسياسية مُختلفة، من قبيل مسلكيات التنسك والعذرية والنبوة والكهانة، ولعل بعضها لا يعدو أن يكون انعكاساً للثقافة الشعبية. يُضاف إلى ذلك كُله، إشكالية ندرة الوثائق التاريخية التي يُمكن التعويل عليها لدراسة تاريخ المسيحية المُبكرة، الذي يبدأ من القرن الأول الميلادي إلى القرن الرابع[1]، لاسيما فيما يتعلق بالكتابات الرسمية للكنيسة القديمة، وهو ما يُشكل ثغرة معرفية تحول دون اطلاع وافٍ على كتابات الجماعات المسيحية المُبكرة وطريقة اندماجها وارتباطها اجتماعيا وثقافيا مع الجماعات اليهودية والرومانية التي آمنت بمسيحانية يسوع.

فكلا الثغرتين، سواء تعلق الأمر بالتشكل الإثني والديني للمسيحية المُبكرة، أو ندرة المصادر التاريخية، شكَّلتا صعوبة للوصول إلى الواقع التاريخي لحياة المرأة المسيحية في القرون الأربعة الأولى. بيد أنَّ تتبع سيرة بعض الشخصيات

[1]- Jaroslav Pelikan, “Christianity”, in: Mircea Eliade & Jones Lindsay (eds.), *Encyclopedia of Religion,* ed. 2 (Detroit: Thomson Gale, 2005), vol. 3, p. 1660.

البارزة[1] فيما وصل إلينا من شذرات، من خلال إدراج التاريخ المجهري *Microhistoire*[2] كوحدة تحليل، من شأنه أن يُجدد فهمنا لنشأة المسيحية وانتشارها ودور المرأة في ذلك، دون أن نغفل أيضا عن التمثلات التي رافقتْ فئة النساء خلال هذه الفترة. وهو ما سنُخصص له هذه المقالة، من خلال التركيز على صورة مريم المجدلية كما وصلتنا في أولى الكتابات المسيحية.

وتبقى شخصية مريم المجدلية من بين الشخصيات المسيحية الأولى التي أثارت نقاشات كثيرة في الأوساط العلمية[3]، نظراً لتضارب الرؤى حول مكانتها والدور الذي قامت به في السنوات الأولى من المسيحية، بين رأي يعتمد نصوص العهد الجديد القانونية، ورأي آخر أعاد قراءة شخصية مريم المجدلية بناء على أكتشاف وثائق جديدة شملتْ عددا من نصوص الأبوكريفا.

---

[1]- نذكر من أبرز هذه الشخصيات: مريم أم المسيح Mary، ومريم المجدلية Mary Magdalen، وأكاثونيس Agathonice، وبلاندين Blandine، والنبية مارقوسيان Marcosian Prophets، وماكسيمليا Maximilla ، وبريسيلا Priscilla، وثكلا Thecla، وكينتيلا Quintilla، وأريت Arete ، ومارسيلا Marcella، وبوليكسينا Polyxena، وثالوزا Thallusa، وكزونثيب Xanthippe، وأنثوسا Antusa، وجورجينا Gorgonia، وماركريا Marcrina، وملانيا الكبيرة Melania The Elder، وملانيا الصغيرة Melania The Younger، ونونا Nonna، وأولامبياس Olympias. يُنظر:
Miller Patricia Cox, *Women in Early Christianity: Translations from Greek Texts* (Washington: Catholic University of America Press, 2005), p. 325.

[2]- الميكرو-هيستوريا أو التاريخ المجهري هو مقاربة تاريخية حديثة، تعتمد في تحليلاتها على دراسة حالات استثنائية، تتوافر على عدد ضئيل من الوثائق التي عادة ما يصعب الوصول إليها؛ كما يعتمد بشكل أساسي على الفرد عوض الاهتمام بالجماعة أو الطبقة أو الفئة، وذلك من خلال تتبع مسار شخصية مُعينة بشكل يسمح بتكوين صورة أكثر وضوحا على حالة المجتمع الذي عاش فيه، وعلى الرغم من أنَّ هذه المقاربة استُعملتْ تحديداً لمُعالجة قضايا تندرج زمنيا في التاريخ الحديث والمُعاصر، إلا أنَّنا سنُحاول قدر الإمكان -وكمُحاولة أولية- الاستفادة من هذه المقاربة لدراسة سيرة مريم المجدلية في الكتابات المسيحية الأولى، وما رافق ذلك من تمثلات ومتخيل عند الجماعات المسيحية المُبكرة.

[3]- Marie Botturi, *Marie-Madeleine du village de Magdala* (Rennes : La Part commune, 2007), p. 7.

ويرجع استعمالنا لثنائية الأرثوذكسيَّة والهرْطَقة في عنوان المقالة، إلى افتراض أولي أنَّ اختلاف صورة مريم المجدلية في النصوص المسيحية المُبكرة، مرده إلى صراع بين الجماعات المسيحية بشأن أيهم أحق بتمثيل رسالة يسوع. وهو الصراع الذي سينتهي في القرن الرابع الميلادي إلى تصنيف ثنائي حدي: أرثوذكسية/ هرطقة، تبنَّته الكنيسة الرومانية بعد انتصارها، مُستعملاً إياه لإقصاء كل من يُخالف تعاليميها. ويعود الفضل بشكل كبير إلى المؤرخ البروتستانتي والتر بور Walter Baur الذي تنّبه إلى خطورة هذه الثنائية في قراءة الأحداث الأولى للمسيحية، وذلك في كتابه **الأرثوذكسيَّة والهرْطَقة في المسيحيَّة المُبكِّرَة** *Orthodoxy and Heresy in Earliest Christianity* (1934م)[1]، حيث أثْبَتَ فيه أنَّ الأفكار الدينية التي انتشرتْ بين الجماعات المسيحيَّة الأولى في فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى واليونان ومصر، سيُحكم عليها لاحقا في القرنين الثاني والثالث بأنَّها هرطقة، وهي الفترة ذاتها التي ظهر معها مفهوم الأرثوذكسية. لقد أماط والتر بور اللثام عن التشكل التاريخي للجماعات المسيحيَّة، وأثبتَ من خلال دراستِه، عكس النظرة اللاهوتيَّة؛ مُؤكداً بذلك أنَّ الأرثوذكسيَّة لم تكنْ هي الصيغة الأصيلة والكونيَّة المُنتشرة عند مسيحيي القرنيْن الأول والثاني، وإنَّما كانت إلى جانب الهرطقات على قَدَمِ المُساواة من حيث انتشارها وقَبُولها، وفي صراعٍ وتنافسٍ مُستمِرَيْن من أجْلِ نَيْل الشرعيَّة الدينيَّة. ونتيجةً للعديد مِنَ المُتغيِّرات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة، استطاعتْ المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة الانتصار، وأعادتْ كتابة التاريخ بأثر رجعي، جاعلة من آرائهم واختياراتها الدينية، النموذج الوحيد للمسيحية. وبالإمكان التأكيد على وجود هذا الصراع بين جماعة أرثوذكسية وأخرى مُهرطقة، من خلال دراسة بعض

[1] Bauer Walter, Orthodoxy and Heresy in Earliest Christianity, tr: Robert A. Kraft; Gerhard Krodel, Philadelphia, Fortress Press, 1971.

الشخصيات المسيحية المؤثرة التي تجاذبتها كل جماعة ونسجت عنها مُتخيلا خاصا؛ وتُعد مريم المجدلية واحدة من بين هذه الشخصية.

أولا: مريم المجدلية وفق نصوص العهد الجديد

تعود أصول مريم المجدلية إلى مدينة تقع على ضفاف بحُيرة طبرية، تُدعى مجدلة وهو اسم المدينة بالآرامية[1]. وقد ذُكرتْ مريم المجدلية في الأناجيل الأربعة اثنتي عشرة مرة تصريحاً، وخمس مرات تلميحاً، إما باسم مريم دون ذكر اللقب، أو بذكر حدث في إحدى الأناجيل لم يُشر فيه إلى مريم المجدلية، ويُوازيه في إنجيل آخر مع التصريح بالاسم، ومن خلال هذه النصوص نستطيع أن نستنبط صورة مريم المجدلية وبعض الأدوار التي أنيطت بها.

1 – مريم المجدلية المذنبة

تفرَّد إنجيل لوقا بذكر أول ظهور لامرأة تُدعى مريم المجدلية، وذلك عند الحديث عن مجموعة من النساء تبعن يسوع بعد موعظة الجبل، وكُن يتكلفن بخدمته أثناء رحلته إلى أورشليم؛ ليورد بعدها نصا عن مريم المجدلية التي كانت مستحوذة من قبل سبعة شياطين: "وَبَعْضُ النِّسَاءِ كُنَّ قَدْ شُفِينَ مِنْ أَرْوَاحٍ شِرِّيرَةٍ وَأَمْرَاضٍ: مَرْيَمُ الَّتِي تُدْعَى الْمَجْدَلِيَّةَ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا سَبْعَةُ شَيَاطِينَ"[لوقا 8: 2–3]. بيد أنَّه كثيراً ما دُمجْت هذه الشخصية الواردة في النص، مع المرأة الخاطئة، التي سبق وأن ذكرها لوقا في الإصحاح السابع: "وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً، إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ، جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ" [لوقا 7: 37–38].

[1]- Diane Treacy-Cole, “Mary Magdalene”, in: *Encyclopedia of Religion*, vol. 9, p. 5756.

لقد ذهبتْ العديد من تفاسير العهد الجديد إلى القول بأنَّ المرأة مجهولة الاسم التي وردتْ في لوقا [7: 37]، هي الشخصية نفسها التي جاء الحديث عنها في لوقا [8: 2]؛ على أنَّ بارث إيرمان يؤكد أنَّ صفة المرأة الزانية التي أُلحقتْ بمريم المجدلية من خلال المُطابقة بين النصين، لا تستند إلى أي حدث تاريخي أو نص مُعين[1]. في حين يستند القول بأن مريم هي نفسها المذكورة في النص السابق[2] إلى كون القصة نفسها قد ذُكرتْ عند متَّى ومُرقص، لكن ليس في بيت الفريسي، وإنَّما قبل العشاء الأخير. جدير بالإشارة إلى أنَّ نص لوقا [7: 37] لم يُصرح بطبيعة الخطيئة التي اقترفتها مريم المجدلية، كما أنَّ وصف امرأة بالخاطئة لا يدل في اليهودية على تُهمة الزنا، وإنما قد يكون بسبب القيام بعمل في يوم السبت، أو مُخالفة بعض تعاليم الناموس[3]، غير أنَّ مُعظم التفاسير المسيحية لهذا النص تذهب إلى أنَّ مريم المجدلية كانت بغياً؛ وهي تُهمة لا تنسجم مع الصورة التي عرضتها نصوص أخرى من الأناجيل القانونية، التي تتحدث عن مريم المجدلية باعتبارها امرأة ثرية [لوقا: 8: 3] لا حاجة لها بطلب المال عن طريق البغاء[4]. وعلى الرغم من عدم وجود أدلة على تطابق الشخصيتين، فقد ترسَّختْ هذه الصورة بشكل رسمي مع البابا غريغوري الأول (و. 540م – ت. 604م) الذي يُعد أول آباء الكنيسة الكاثوليكية القائلين بأنَّ مريم المجدلية هي نفسها المرأة الخاطئة[5]، وذلك في العظة 25 التي قال فيها:

1- Bart D. Ehrman, *Peter Paul and Mary Magdalene: The Followers of Jesus in History and Legend* (Oxford: Oxford Univ. Press, 2008), p. 188.

2- Botturi, p. 15.

3- Ehrman, p. 189.

4- عبد الملك بطرس وجون ألكساندر طمسن وإبراهيم مطر (محررون)، **قاموس الكتاب المقدس**، ط 2 (بيروت: مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، 1971)، ص 858.

5- William George McCloskey, *Life of st. Mary magdalen* (Louisville, Ky.: Bradley & Gilbert, 1900), p.14.

"مريم المجدلية التي ذكرها لوقا وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً [لوقا 7: 37] أقبلت على حب الحقيقة، وغسلت ذنوبها بالدموع"[1]؛ ولم يؤثر رأي البابا غريغوري الأول في تفاسير العهد الجديد والأعمال الليتورجية[2] فحسب، بل أيضا في اللوحات الفنية لعدد كبير من رسامي العصر الوسيط[3]، حيث صارت مريم المجدلية رمزاً للمرأة المُذنبة، التي استطاعت من خلال الإيمان بيسوع أن تتحرَّر من قيود الخطيئة.

2 – مريم المجدلية شاهد عيان على حادثة الصلب

تظهر مريم المجدلية بشكل ملحوظ في الأناجيل الأربعة عند الحديث عن قصة الصلب، باعتبارها شاهد عيان لما حصل؛ إذ تُذكر باسمها في أناجيل كل من متى [27: 53–61] ومرقص [15: 40–41] ويوحنا [19: 25]، في حين يكتفي لوقا [23: 55–56] بذكر جمع من النسوة شهدن الحادثة دون الحديث عن أسمائهن، مع الإشارة إلى أنهن نفس النسوة اللائي تبعنه بدءاً من موعظة الجليل. إنَّ حضور مريم في هذه الحادثة، يُمكن عدُّه سبباً وجيها في تركيز عدد

---

[1]- Santha Bhattacharji, *Reading the Gospels with Gregory the Great: homilies on the Gospels, 21-26* (Mass.: St. Bede's Publications, 2001), p. 72; Pope Gregory I, *Homélies sur l’Évangile: Homélies XXI-XL* (Paris: Cerf, 2005), p. 107.

[2]- Trotzig Aina, “L’apparition du Christ ressuscité àMarie Madeleine et le drame liturgique: Étude iconographique,” *Revue de Musicologie*, tome. 86, no. 1 (2000), p. 83-104, p.85.

[3]- يُنظر على سبيل المثال الأعمال الفنية التالية:

Domenico Tintoretto, *Magdalena penitente*, (Roma: Musei Capitolini, 1598-1602); Guido Reni, *The Penitent Magdalene* (Baltimore: The Walters Art Museum, 1635); Nicolas Régnier, *Penitent Mary Magdalene* (Warsaw: National Museum in Warsaw, 17th century); Gregor Erhart, *Mary Magdalene* (Paris: Louvre Museum, 16th century)

من الأعمال الدينية اللاحقة على شخصية مريم، نظراً لما يحمله حدث الصلب من رمزية لاهوتية في الفكر المسيحي.

3 – مريم المجدلية أول مُبشرة بالعهد الجديد

يتكرر الأمر نفسه مع حادثة القيامة، التي تُعد بداية الإعلان عن العهد الجديد –وفق التقسيم الزمني المسيحي–، إذ يذكر كل من متَّى [28: 1–10] ومرقص [15: 40–47] ولوقا [24: 1–11] ويوحنا [20: 1–18] أنَّ مريم المجدلية هي أول شاهد على قيامة المسيح؛ كمَّا خصها يوحنا [20: 15–17] بميزة إضافية كونها أوَّل من تكلم معها بعد قيامته، وهو ما جعل لها صورة رمزية خاصة، لاسيما في النصوص التي لم تعترف الكنيسة بقانونيتها.

غير أنَّ بولس نقل خبر الإعلان عن قيامة المسيح –الذي اتفقتْ عليه الأناجيل الأربعة– بشكل مُغاير تماماً، إذ استبدل مريم المجدلية ببطرس، حيث ذكر في رسالته الأولى إلى كورنثوس –السابقة على تدوين الأناجيل–، أن أول شخص التقى بالمسيح بعد قيامته هو بطرس: "سلمت إليكم قبل كل شيء ما تلقيته، وهو أن المسيح مات من أجل خطايانا كما جاء في الكتب، وأنه دفن وقام في اليوم الثالث كما جاء في الكتب، وأنه ظهر لبطرس ثم للرسل الاثني عشر" [كورنثوس الأولى 15: 3–6]. إنَّ تغييب مريم المجدلية عن هذا المشهد، يسمح بتحديد موقف بولس من دور المرأة الرسولية داخل الجماعة المسيحية. ولم يكن ذلك مُرتبطاً برسائل بولس فحسب، بل الأمر نفسه يتكرر في أعمال الرسل ورؤى يوحنا؛ خلافا للأناجيل الأربعة[1]، على الأقل، التي جعلتْ مريم المجدلية أول شاهد على قيامة المسيح، وأول مُعلن عن هذا الخبر.

4– بين نسيان ذاكرة وذاكرة نسيان

---

[1]- Ehrman, p. 425.

اختفتْ مريم المجدلية بشكل غامض بعد حدث قيامة المسيح، وتوارى ذكرها في جميع أسفار العهد الجديد، لاسيما أعمال الرسل الذي يُؤرخ للسنوات الأولى من حركة المسيحيين الأوائل. بيد أن المُعطيات القليلة التي تُوفرها النصوص القانونية عن مريم المجدلية تسمح بتشكيل ثلاث صور أساسية:

تبرز الصورة الأولى في النصوص الصريحة للأناجيل، التي تتحدث عن امرأة تُدعى مريم المجدلية آمنت بالمسيح وتبعته في مسيرته كبقية النساء، لكن دون وجود أي إشارة إلى الدور الذي قامة به في حركة يسوع والجماعة المسيحية المُبكرة، سواء قبل حادثة الصلب أو بعدها.

أمَّا الصورة الثانية، فتُمثِّل انعكاساً لآراء الكنيسة الرسمية بشأن شخصية مريم المجدلية، وذلك بجعل المرأة الخاطئة التي ذكرها لوقا في الإصحاح السابع [7: 37] هي نفسها مريم المجدلية، الشيء الذي أثَّر سلباً على تمثلات صورتها في الأدب الديني المسيحي للعصور الوُسطى. يُمكن إرجاع هذا التفسير إلى مُحاولة الكنيسة الرمسية أن تحد من تأثير هذه الشخصية في أحداث القرن الأول الميلادي، من خلال حصر صورتها في المتخيل المسيحي في المرأة ذات الماضي المُدنس والتي استطاعت رغم ذلك أن تنال الخلاص عن طريق قوة إيمانها، هنُا ينتهي دورها والرمزية التي تُمثلها داخل سياق العهد الجديد، دون السماح لها بأي دور آخر، في السنوات التي تلت حادثة صلب يسوع.

بيد أنَّ النصوص القانونية تسمح بتشكيل صورة ثالثة، هي بمثابة ترميم لبعض الإشارات في الأناجيل، تعكس صورة إيجابية لما تناقلته ذاكرة المسيحيين الأوائل ومُدوني الأناجيل، قبل تدخل ذاكرة النسيان. ذلك أنَّ مريم المجدلية هي الشخصية التاريخية الأكثر حضوراً في الأناجيل بعد يسوع، كما أنها دائما ما تُذكر في البداية عند الحديث عن جماعة من النساء، كما جاء عند متى [27:

56]؛ وأيضا في نصوص أخرى من الأناجيل[1]. إنَّ العناية بذكر مريم لا يُمكن عدُّها أمراً اعتباطياً؛ فكما أن ذكر بطرس على قائمة تلامذة المسيح في كل مُناسبة[2]، يدل على مكانته الخاصة عند المسيح، والتي ستتحول لاحقاً إلى سلطة رمزية تجعل منه أول رسل العهد الجديد، وهو ما نص عليه إنجيل متى [متى 16: 18]. فإنَّ الأمر نفسه يُمكن استنتاجه من خلال تحليل النصوص السالفة، فترتيبها الأول على قائمة النساء؛ والدور الذي كانت تقوم به في رحلة يسوع[3]؛ وأيضاً كونها أول من آمنتْ بقيامة يسوع وتحدَّثتْ معه، كل ذلك يدل بشكل واضح على مكانتها ليس فقط بين النساء، ولكن أيضا بين باقي تلامذة يسوع[4]. ولعل أكثر النصوص دلالة على ذلك ما ذكره مرقص [16: 14] حين وبَّخ يسوع باقي تلامذته لعدم إيمانهم بما أخبرت به مريم المجدلية: "أَخِيرًا ظَهَرَ لِلأَحَدَ عَشَرَ وَهُمْ مُتَّكِئُونَ، وَوَبَّخَ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ وَقَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ، لأَنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقُوا الَّذِينَ نَظَرُوهُ قَدْ قَامَ".

لقد كانت مريم المجدلية أول رسولة للرُسل[5]، وأول مُبشر ببداية مرحلة المسيحية المُبكرة بإعلانها خبر قيامة المسيح[6]، وهي الإشارة التي ذكرها هيبوليتوس الرومي Hippolyte de Rome (ت. 235م) حوالي القرن الثالث الميلادي، التي جاء فيها: "المسيح نفسه ظهر لتلامذته وقال لهم: أنا الذي ظهرت لهؤلاء النساء وأنا من أرسلتهم لكم كرُسل"[7]، أيضا جاء هذا الوصف في

[1]- يُنظر أيضا: متَّى 16: 18؛ مرقص 15: 47؛ 16: 1، 9؛ لوقا 8: 2؛ 24: 10؛ يوحنا 19: 25

[2]- يُنظر: متى 4: 18؛ 10: 2؛ مرقص 5: 37؛ لوقا 6: 14؛ يوحنا 1: 40.

[3]- على الأقل في مُساهمة مريم المجدية في تمويل رحلة يسوع إلى أورشليم.

[4]- Treacy-Cole, p. 5756.

[5]- باللاتينية: apostola apostolorum

[6]- Ehrman, p. 186, 256.

[7]- Ibid, p. 253.

كتابات يوحنا ذهبي الفم Jean Chrysostome (ت. 407) وأوغسطين Augustin d'Hippone (ت. 430م)[1].

غير أنَّ هذا الدور تم تناسيه في الكتابات الأولى –ذاكرة النسيان– سواء بعد زعامة بطرس لكنيسة المسيح باعتباره أول مؤسسيها [متى 16: 18]، أو من خلال رسائل بولس الذي تجاهل مريم المجدلية كأول رسول لخبر قيامة المسيح، ليظهر في ساحة الأحداث فقط بولس وبطرس كمؤسسين للمسيحية الرسمية أو المسيحية الأرثذوكسية إضافة إلى حضور شخصيات أخرى من الأتباع الاثنى عشر كمُنتمين لأحد التيارين.

إنَّ هذا النسيان لشخصية مريم المجدلية، من شأنه أن يُحيل على محوريتها داخل الجماعة المسيحية المُبكرة؛ وهو الأمر الذي لم ترغب الكنيسة في نقله، سواء من خلال إرجاع الخلاف إلى الجيل الأول مع بطرس وبولس، أو مع التفسيرات اللاحقة لنصوص من العهد الجديد القانوني، مما أدى إلى تغييبها بعد أن كتب التيار المُنتصر تاريخ هذه المرحلة. بيد أنَّ محاولة الكشف عن دواعي هذا الخلاف، يجب ألا تُفسَّر بمُعطيات غير موثقة أو خيالية[2]؛ إذ الغرض من

[1]- Treacy-Cole, p.5757.

[2]- نقصد بالخيالي، تلك المُحاولات التي سعتْ إلى إثارة المُتلقي بجعل الصراعات الدينية بين مريم المجدلية وباقي تلامذة يسوع ذات بُعد سياسي، وذلك بالقول إنَّ زواج يسوع بمريم أدى إلى استمرار النسل المقدس والسلالة الملكية، وجرى ربط هذه الأحداث مع الحملات الصليبية وتنظيمات عسكرية من قبيل فرسان الهيكل وأسطورة الكأس المقدسة. يُمكن الوقوف على هذا السرد الخيالي للأحداث في عدد من الكتابات المُعاصرة التي تُرجمتْ إلى العربية، من قبيل: **الدم المقدس الكأس المقدسة** (2008)؛ **صحف المسيح تكشف السر الأعظم في التاريخ** (2008)؛ **المكان المقدس** (2009)؛ **الإرث المسيحي: أدلة مذهلة على السيد المسيح وعلى جمعية سرية لا تزال مؤثرة حتى اليوم** (2009)؛ **فرسان الهيكل والمحفل الماسوني** (2009)؛ **خديعة مخطوطات البحر الميت** (2010). جميع هذه المُؤلفات وغيرها كُتب من قبل صحفيين يسعون إلى البحث عن الإثارة والتشويق فيما يُقدمونه إلى القارئ. وقد زاد الاهتمام بهذه الكتابات بعد أن عمد دان براون إلى

هذه المقالة هو فهم دينامية الحركة المسيحية المُبكرة، ودواعي تغييب الدور الذي كانت تقوم به مريم، مع تحول صورتها في المتخيل المسيحي إلى رمز للمرأة الخاطئة؛ وكما يذكر بارث إيرمان[1]، لا وجود لنصوص أو وثائق مباشرة تؤكد اختلاف كريستولوجيا مريم المجدلية وتعاليمها عما كان سائدا في جماعة بطرس وبولس.

ثانيا: مريم المجدلية في أبوكريفا العهد الجديد

خلافا للغموض الذي يلف شخصية مريم المجدلية في الأناجيل الأربعة وتحاشٍ لذكر دورها ومكانتها عند يسوع، نجد بعض نصوص الأبوكريفا أكثر وضوحاً في هذا الصدد، وتكاد تكون شخصية مريم المجدلية الشخصية الرئيسة والأكثر تأثيراً بعد المسيح، لاسيما في عدد من النصوص التي تعود للمخطوطات المُكتشفة في نجع حمادي.

إن الاكتشافات الحديثة لمخطوطات نجع حمادي، ولأناجيل جديدة تُعزى كتابتها لبعض أتباع المسيح الأوائل، لم تُغير فقط نظرة الباحثين بشأن الفترة المُبكرة لتشكل المسيحية، وإنما كشفتْ أيضا ملامح جديدة للعلاقة بين تلامذة

توظيف هذا السرد الخيالي في تأليف روايته **شيفرة دافنشي**. يُعلق بارث إيرمان على مثل هذه الكتابات قائلا: "لا يوجد أي نص في المصادر القديمة يُشير إلى أن يسوع كان متزوجاً، ناهيك عن الزواج من مريم المجدلية. كل هذه الادعاءات هي جزء من إعادة بناء حديثة وخيالية لحياة يسوع، قد لا تكون المقاربة التاريخية لمصادرنا مثيرة ومُشوقة مثل الادعاءات الخيالية أن يسوع كانت له عشيقة؛ ومارس الجنس؛ وكان له أطفال". يُنظر:

Bart D. Ehrman, *Truth and Fiction in the Da Vinci Code: A Historian Reveals What We Really Know About Jesus, Mary Magdalene, and Constantine* (New York: Oxford University Press, 2004), p. 144-145.

.6[1]- Ehrman, p.25

يسوع، فالإنجيل المنسوب إلى توما[1] وأيضا الإنجيل المنسوب إلى مريم المجدلية أعطى لهذه الشخصية صورة جديدة، ليس باعتبارها أحد أكثر الأتباع المقربين للمسيح وأكثرهم إلهاماً ودفاعاً عن رسالته فحسب، بل أيضا بكونها المرأة التي خصّها يسوع بتعاليم سرية[2]، نظراً لكونها الوحيدة بين أتباعه التي أدركتْ رسالته

1- يُعد إنجيل توما من بين أهم المخطوطات المُكتشفة خلال القرنين الماضيين. وتوالت الدراسات النقدية لإنجيل توما منذ تاريخ اكتشافه في خمسينيات القرن العشرين، لتكشف عن جوانب جديدة من تاريخ المسيحية المُبكرة، وقد ضمّن بيات بلاتز Beate Blatz في مقدمة تحقيقه، قائمة مُهمة لأبرز الدراسات؛ كما أحال هيلموت كوستر Helmut Koester في كتابه عن تاريخ العهد الجديد على أبرز التحقيقات للإنجيل والدراسات والأبحاث حوله، بالإضافة إلى المقدمة التي أعدها على تحقيق جيمس روبنسونJames M. Robinson لنص إنجيل توما في كتابه عن مخطوطات نجع حمادي؛ وأيضا الكتاب الصادر مؤخرا في نسخة منقحة لـ Stephen J. Patterson مع آخرين. يُنظر:

Beate Blatz, "The Coptic Gospel of Thomas", in: Wilhelm Schneemelcher (ed.), *New Testament Apocrypha: vol 1* (London: Westminster John Knox Press, 2003), p. 110-116; Helmut Koester, *Introduction to the New Testament: History and literature of early Christianity*, ed. 2 (New York: Walter de Gruyter, 2000), vol. 2, p. 156; James M. Robinson (ed.), *The Nag Hammadi Library in English* (New Yor: HarperCollins, 1990), p. 124-126; Stephen J. Patterson & Hans-Gebhard Bethge & James M. Robinson, *The fifth Gospel: the Gospel of Thomas comes of age* (New York: T&T Clark, 2011), p. 97-99.

2- إن فكرة المعرفة السرية يتكرر صداها في العديد من الكتابات المسيحية المُبكرة، بما فيها الكتابات القانونية [مرقص 4: 10-12؛ 1 كورنثوس 2: 1-16]. غير أنَّ مدار سرية التعاليم، يجعلها تتمايز فيما بينها؛ ففي الكتابات التي تنتمي للجماعات الأرثوذكسية المُبكرة وأيضا جماعة بولس، نجد أنَّ مفهوم السر يرتبط بالخُطة الإلهية حول الخلاص، التي لم تُكشف للناس إلاَّ بعد حدث الصلب والقيامة، ليصير بعدها السر الإلهي في مُتناول الجميع عن طريق التبشير به؛ وبالإضافة إلى الاقتران الزمني لانتقال هذا السر من الخفاء إلى العلن -قبل حادثة الصلب وبعدها-، فإنه سيرتبط أيضاً بموقف الآخر غير المسيحي من البشارة، [2 كورنثوس 4: 3-4] ونجد الأمر نفسه في إنجيل مُرقص حيث يتحدث عن سر كريستولوجيا ابن الله، الذي كان محجوباً زمن يسوع، وكُشفتْ لجميع الناس بعد أحداث الصلب. أما مفهوم التعليم السري في إنجيل مريم المجدلية وباقي الأناجيل ذات الميل الغنوصي، فإنه يتجه نحو التوظيف الجماعوي الذي يعتبر فئة من المسيحيين هم فقط من استطاعوا إدراك حقيقة السر، ليقترب بذلك من التعاليم الباطني.

الحقيقية، ليُسند إليها مُهمة إبلاغ هذه الرسالة لتلامذته. وهو الأمر الذي جعلها تتبوأ مكانة هامة[1] بين مؤسسي الكنيسة المسيحية المُبكرة كبطرس وبولس[2]. تظهر هذه العلاقة الوطيدة بين مريم المجدلية ويسوع بشكل قوي في الإنجيل المنسوب إليها، وهو النص الذي سنعتمد عليه في هذا الجزء من المقالة، بيد أنَّ تفضيلها عن باقي تلامذة يسوع يُمكن الوقوف عليه أيضا في نصوص أخرى من قبيل: إنجيل توما [2: 2]، وسِفر الحوار مع المُخلص [3: 5]؛ وإنجيل فيليب [2: 3]؛ وسفر حكمة يسوع المسيح [3: 4].

1- نظراً لهذه المكانة التي حضيت بها مريم المجدلية، حاول بعد الكتابات المُعاصرة تفسير ذلك بالافتراض أن مريم المجدلية هي المرأة التي اختارها المسيح زوجة له. وأبرز نص يُمكن من خلال دعم الفرضية، يعود إلى إنجيل فيليب الذي كُتب خلال القرن الثاني الميلادي، وهو من بين المخطوطات المُكتشفة في نجع حمادي عام 1945. تحضر مريم المجدلية في النص بصفتها رفيقة للمسيح [فيليب 59: 9-10]، وحُمل لفظة "الرفيقة" باللغة اليونانية -التي كُتب بها الإنجيل- إلى معنى الزوجة؛ وفي نص آخر من إنجيل فيليب، يذكر على لسان المسيح، أنه يُحبها أكثر من باقي أتباعه. تبدو هذه النصوص مُناسبة لنسج سيرة حميمة ومثيرة ليسوع ومريم المجدلية، وهو الأمر الذي استفادة منه عدد من الأعمال الروائية والفنية، غير أنَّ الذي يهمنا في هذه المقالة، هو ما تؤكده هذه النصوص التي تنتمي إلى الأبوكريفا، من مكانة مريم المجدلية عند المسيح، بغض النظر عن طبيعتها، الأمر الذي يُشير إلى الدور الهام الذي قامت به في تأسيس الجماعة المسيحية المُبكرة. بخصوص النص من إنجيل فيليب، يُنظر:
Louis Painchaud, “Évangile selon Philippe”, in: in: Jean-Pierre Mahé & Paul-Hubert Poirier (eds.), *Écrits gnostiques: La bibliothèque de Nag Hammadi* (Paris: Gallimard, 2007), p. 352.

وفيما يخص الأعمال السينمائية -سواء درامية أو وثائقية- التي تناول العلاقة بين يسوع ومريم المجدلية يُمكن الإحالة على:
Miguel Contreras Torres (dir.), *María Magdalena, pecadora de Magdala* (1946); Raffaele Mertes & Elisabetta Marchetti (co-dir.), *Gli amici di Gesù - Maria Maddalena* (2000); Rob Fruchtman (dir.), *Secrets of Mary Magdalene* (2006); Waldemar Januzczak (dir.), *Mary Magdalene: Art's Scarlet Woman* (2017); Garth Davis (dir.), *Mary Magdalene* (2018).

2- Botturi, p. 14.

يعود اكتشاف إنجيل مريم إلى عام 1896 في مخطوط من البردي مكتوب باللغة القبطية، عثر عليه في مصر الباحث الألماني كارل راينهاردت، وحُفظ في مجموعة تضم كتابات مسيحية غنوصية عُرفتْ بمخطوطات برلين[1]. وتعزو بعض الدراسات تدوين إنجيل مريم المجدلية إلى الفترة المُمتدة ما بين القرن الثاني والخامس ميلادي[2]؛ فأول نسخة كُتبت في القرن الثاني حوالي عام 150، ليُعاد نسخها وترجمتها إلى اليونانية في القرن الخامس[3]. ورغم أن نسبة الإنجيل لمريم المجدلية يشوبه الشك، إلا أن بوتوري تُرجح فرضية أن يكون الإنجيل من إملائها[4]، أو على الأقل نُقل كذاكرة شفهية إلى أن دُون في أول مخطوطة.

لم يصل من هذا الإنجيل الشيء الكثير، فمن بين ثمان عشرة ورقة من البردي التي يتكون منها، لم يستطع العلماء ترميم وتحقيق سوى ثمانية فقط[5]، غير أن ما توفر للباحثين يكشف طبيعة هذه الكتابات التي تُصنف ضمن الكتابات الغنوصية[6]، وضمن النصوص التي تتحدث عن نهاية العالم وعن المآل الأخروي[1].

---

[1]- مجموع مخطوطات برلين Codex de Berlin 8502 تتكون من ثلاث نصوص غنوصية: إنجيل مريم المجدلية وسفر أسرار يوحنا وسفر حكمة يسوع المسيح، إضافة إلى سفر أعمال بطرس الذي لا ينتمي إلى الغنوصية. قام ميشيل تاردو Michel Tardieu بترجمة النصوص إلى الفرنسية وأضاف إليها ما يُوازيها من نصوص تعود لمخطوطات نجع حمادي، يُنظر:
Michel Tardieu, *Écrits gnostiques : Codex de Berlin* (Paris: Cerf, 1984).

[2]- Anne Pasquier, "Évangile selon Marie: Présentation", in: *Écrits gnostiques: La bibliothèque de Nag Hammadi*, p. 1656.

[3]- Botturi, p.13.

.4[4]- Ibid, p.1

.4[5]- James Robinson, p. 52

[6]- إشكالية تعريف مصطلح الغنوصية مع شح المُعطيات التاريخية بشأنها، سيكون محط دراسة مُعمقة صدرتْ عام 2007 شملتْ العمل على ترجمة مكتبة نجع حمادي القبطية تحت إشراف كل من جون بيير ماهي Jean Pierre Mahé وبول هيبرت بواري Paul-Hubert Poirier، أثبتا من خلالها أنَّ الغنوصية ليستْ

يتكون هذا الإنجيل من جزأين[2]،الأول عبارة عن حوار بين المسيح وتلامذته، يُجيبهم عن أسئلة حول طبيعة المادة والخطيئة، والجزء الثاني من النص يتضمن شرحاً من طرف مريم المجدلية للتعاليم التي خصها بها المسيح دونا عن باقي الأتباع؛ حيث تظهر فيه كمانحة للأمل بعد أن حل اليأس بأتباع يسوع على إثر حادثة الصب، وأيضا باعتبارها كاشفة للسر الذي عهده إليها وخصها به دونا عن البقية: "لا تدعوا الألم والشك يتملككم، فنعمته سترافقكم وتحميكم: فلنهلل بالأحرى لمجده، لأنه هيأنا، وهو يدعونا لكي نكون بشرًا بكل ما في الكلمة من معنى، بهذه الكلمات، حولت مريم قلوبهم تجاه الخير. فانفتحوا

مجموعة من العقائد والأفكار المُحددة سلفاً، بل هي تعبير عن طريقة في فهم الدين ومُزاولة التجربة الدينية. ومن هذا المُنطلق فإن مكتبة نجع حمادي التي تضم أيضا إنجيل توما، تأخذ وحدتها ليس من خلال الاشتراك في نفس العقائد والأفكار الدينية، وإنَّما من خلال تجميعها من قِبل مسيحيين تأثروا بموجة التيار الغنوصي التي اجتاحت أديان حضارات المتوسطي بما فيها المسيحية. يُنظر:

Mahé & Poirier, p. xx-xxii.

يُنظر أيضا كتابهما الذي صدر عام 2010 وهو تحرير لأعمال ندوة قُدِّمت فيها حصيلة الدراسات المُعاصرة عن نصوص نجع حمادي الغنوصية:

Jean-Pierre Mahé et al (eds.), *Les textes de nag Hammadi : Histoire des religions et approches contemporaines* (Paris: Académie des inscriptions et belles-lettres, 2011).

وعن تصنيف الإنجيل ككتاب غنوصي يُنظر:

Schneemelcher Wilhelm, *New Testament Apocrypha: vol 2* (Louisville, Ky: Westminster John Knox Press, 1991), p. 390.

[1]- Ehrman, p. 257; James Robinson, p. 524.

[2]- Robinson, p. 523.

على كلمات المعلم"[1]؛ تكشف بعدها مريم عن تلك التعاليم التي لا يعرفها أحد من الأتباع، وحين انتهائها يظهر رد فعل بطرس الذي لم يكن راضياً على تخصيص امرأة بهذه التعاليم، بمعزل عن باقي أتباعه من الرجال، إذ يقول: "هل يعقل أن يكون المعلم قد تحدث هكذا، مع امرأة، عن أسرار، نحن نجهلها؟ هل يتوجب علينا تغيير عاداتنا؛ والاستماع إلى هذه المرأة؟ هل انتقاها حقًا وفضلها علينا؟" [17: 17-20][2].

لكن سُرعان ما وبَّخه لباوس مُذكراً إياه بمكانة مريم المجدلية عند المسيح: "عندئذ تحدث لباوس فقال: "لقد كنت دائمًا أحمقًا يا بطرس؛ وها أنذا أراك تتحامل على المرأة، كما يفعل خصومنا. ولكن، إن كان المعلّم قد جعلها جديرة، فهل بوسعك أن ترفضها؟ من المؤكد أن المعلّم يعرفها جيدًا (...) وقد أحبها أكثر منّا، لذلك فليتملكنا الندم ولنصبح ذلك الإنسان الحقيقي؛ ولندعه يتجذّر فينا فنؤمن بما طلبه منّا. كي نبشر بالإنجيل من دون أن نبحث عن قواعد وقوانين جديدة ما عدا تلك التي كان شاهد عليها"[18: 7-29][3]. إنَّ هذه المُحادثة بين بطرس ومريم، تُقابلها نصوص أخرى، لاسيما في إنجيل توما وسفر الحكمة. الأمر الذي يُحيل إلى غيرة بطرس من مكانة مريم عند يسوع ورفضه أن تُخصّ بتعاليم سرية.

خلاصة

على الرغم من الشك في مدى تاريخية الأحداث التي تنقلها نصوص الأبوكريفا بشأن المسيحية المُبكرة، إلا أنَّ تنوع النصوص التي تتحدث عن مريم المجدلية، وانتشارها في فترة مزامنة لانتشار النصوص القانونية، يسمح بتشكيل

.5[1]- Ibid, p. 52
.6[2]- Ibid, p.52
.7[3]- Ibid, p.52

صورة تختلف تماماً عما نقلته الكنيسة الرسمية. إذ تجعل منها إحدى الشخصيات المسيحية الأكثر تأثيراً وحضوراً في الأحداث التي تلتْ قصة الصلب، ورابطة وصل بين المسيح وبين تلامذته؛ وهو ما جعلها في مُتخيل هذه الجماعة –التي يغلب عليها التأثر بالغنوصية– الحاملة للتعاليم السرية ليسوع وللفهم العميق لرسالته. في حين، نجد الكنيسة الرسمية قد أكَّدتْ على صورة مريم الخاطئة التي تبحث عن التوبة، من خلال التفاسير المتتالية لعدد من نصوص العهد الجديد القانونية؛ كما عمدتْ إلى التقليل من دور مريم المجدلية في الأحداث التي أعقبت صلب يسوع، ليتوارى ذكرها في أعمال الرسل ورسائل بولس ومُختلف نصوص آباء الكنيسة التي تؤرخ لأحداث ما بعد الصلب.

إنَّ الاختلاف بشأن مريم المجدلية لا يُحيل على تناقض في سيرتها، بقدر ما يُحيل على حالة الصراع التي ميَّزت تاريخ الجماعات المسيحية في القرن الثاني والثالث الميلاديين، وهي الفترة التي كُتب فيها إنجيل مريم المجدلية وعدد من نصوص الأبوكريفا؛ وهي أيضا الفترة التي عمدتْ فيها الكنيسة إلى وضع قانون للكتابات المُعترف بها. فكانتْ من ثمت مريم المجدلية، بمثابة الشخصية التي يتكثّف فيها الصراع بين الجماعتين، بشكل جعل المُتخيل الذي تبنَّته كل فئة يُعبر عن رهاناته الخاصة أكثر مما يُعبر عن حقيقة مريم المجدلية.

قائمة المراجع

Aina, Trotzig. “L’apparition du Christ ressuscité àMarie Madeleine et le drame liturgique: Étude iconographique.” *Revue de Musicologie*. tome. 86, no. 1 (2000), p. 83-104.

Bhattacharji, Santha. *Reading the Gospels with Gregory the Great: homilies on the Gospels, 21-26*. Mass.: St. Bede's Publications, 2001.

Botturi, Marie. *Marie-Madeleine du village de Magdala*. Rennes : La Part commune, 2007.

Cox, Miller Patricia. *Women in Early Christianity: Translations from Greek Texts*. Washington: Catholic University of America Press, 2005.

Ehrman, Bart D. *Peter Paul and Mary Magdalene: The Followers of Jesus in History and Legend*. Oxford: Oxford University Press, 2008.

________. *Truth and Fiction in the Da Vinci Code: A Historian Reveals What We Really Know About Jesus, Mary Magdalene, and Constantine*. New York: Oxford University Press, 2004.

Eliade, Mircea & Jones Lindsay (eds.). *Encyclopedia of Religion.* ed. 2. Detroit: Thomson Gale, 2005.

Gregory I, Pope. *Homélies sur l'Évangile: Homélies XXI-XL*. Paris: Cerf, 2005.

Koester, Helmut. *Introduction to the New Testament: History and literature of early Christianity*. ed. 2. New York: Walter de Gruyter, 2000.

Mahé, Jean-Pierre & Paul-Hubert Poirier (eds.). *Écrits gnostiques: La bibliothèque de Nag Hammadi*. Paris: Gallimard, 2007.

Mahé, Jean-Pierre et al (eds.). *Les textes de nag Hammadi : Histoire des religions et approches contemporaines*. Paris: Académie des inscriptions et belles-lettres, 2011.

McCloskey, William George. *Life of st. Mary magdalen*. Louisville, Ky.: Bradley & Gilbert, 1900.

Patterson, Stephen J. & Hans-Gebhard Bethge & James M. Robinson. *The fifth Gospel: the Gospel of Thomas comes of age.* New York: T&T Clark, 2011.

Robinson, James M. (ed.). *The Nag Hammadi Library in English*. New Yor: HarperCollins, 1990.

Schneemelcher, Wilhelm (ed.). *New Testament Apocrypha: vol 1*. Louisville, KY: Westminster John Knox Press, 2003.

________. *New Testament Apocrypha: vol 2.* Louisville, Ky: Westminster John Knox Press, 1991.

Tardieu, Michel. *Écrits gnostiques : Codex de Berlin*. Paris: Cerf, 1984.

بطرس، عبد الملك وجون ألكساندر طمسن وإبراهيم مطر (محررون). **قاموس الكتاب المقدس**. ط 2. بيروت: مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، 1971.